الفصل الرابع

أمجادٌ جديدةٌ في أسبانيا

في الوقت الذي كان فيه نجم الخلافة في بغداد آخذًا في الأُفُول، كان هناك على الجانب الآخر للبحر المتوسط خلافة آخذة في بلوغ ذُرى المجد؛ حيث أن الحضارة الإسلامية كان مقدرا لها أن تبلغ أوْجها في أسبانيا الأوروبية، وليس في آسيا أو أفريقيا، وبسبب متاخَمَة حدودها لقارة أفريقيا، فإن أسبانيا قد سقطت بسهولة بين يدي الفاتحين ولاسيما أن يد العون قد مدت بالفعل لهم من قبل المتمردين، وهذا هو ما حدث بالفعل حيث قامت مجموعة متمردة من نبلاء القوط الغربيين في نهاية المطاف بطلب المساعدة من موسى بن نصير الذي نجح في دمج سكان هذه المنطقة الذين ينتمون لأعراقٍ وأجناسٍ مختلفة وجمعهم مع العرب تحت راية المغاربة الفاتحين وكان موسى في هذا الوقت قد تمكن من فتح شمال أفريقيا وتربَع على سُدة حكمها.

وكان موسى، الذي علم عن طريق الاستطلاع والاستكشاف الدقيق للأمر أن أسبانيا تمد يدها للفاتحين، قد أرسل قائده طارق بن زياد بقوة يبلغ قوامها سبعة الآلاف رجل معظمهم من البربر، ولم يكد طارق يحط بقواته في أرض أسبانيا في موقع قريب من جبل طارق حتى انطلق مدعومًا بخمسة الآلاف إضافيين من البربر لملاقاة روردريك ملك القوط الغربيين الذين لقوا هزيمةً نكراء على أيدي المغاربة الفاتحين، وهو الأمر الذي أدى إلى فتح بقية أسبانيا بسرعة ويسر ذلك أن البلاد في ذلك الوقت كانت تصْطلي في آتون التمزق بسبب الصراعات الدينية بين الآريوسيين والأثناسيوسيين، وبين اليهود والمسيحيين وبسبب المنافسة الضنينة على السلطة من قبل نبلاء القوط الغربيين.

وتوجه موسى بن نصير، قِيل أنه كان مدفوعًا لذلك بسبب نجاحات طارق بن زياد، على رأس قوةٍ قوامها عشرة آلالاف جنديّ كلهم من العرب تلقاء أسبانيا حيث استكمل فتح المدن والمعاقل التي كانت لديها القدرة على مقاومة قوات طارق بن زياد.

وعاد موسى إلى دمشق برًّا، مُخلفًا وراءه ابنه عزيز على سُدة الحكم في أسبانيا، حيث مر في طريقه بشمال أفريقيا وكان في حوزته غنيمة عظيمة تتمثل في حاشية ضخمة من العبيد إضافة إلى الكثير من سجناء الحرب الذين كان من بينهم أربعمائة من الأمراء القوطيين الغربيين، وفي إشارة منه إلى أهمية هذا الانتصار

الذي يعد الأعظم بين سلسلة الانتصارات الإسلامية، استقبل الخليفة الوليد الموكب المنتصر استقبالاً رسميًا.

ولقد حاولت الجيوش العربية أن تتغلغل أكثر وأكثر في داخل أوروبا حيث تمكنت من غزو مدينة الغال مرورًا بأراضي إقليم الباسك الذي يقع في شمال غرب أسبانيا، غير أنه عند هذا الحد تمكن شارل مارتال من إلحاق هزيمة ساحقة بالمسلمين في معركة بلاط الشهداء التاريخية التي وقعت في عام 732 م، وهي الهزيمة التي أبقت على الجزء الرئيسي من أوروبا للمسيحية.

obeikan.com

obeikan.com

2

عقب تخلي ذلكم القائد القويّ موسى عن إدراة شؤون أسبانيا، شهدت البلاد تغيرات وتقلبات ومنافسات حزبية استمرت إلى أن تربَّع عبدالرحمن على عرش الملك في أسبانيا، ومما تجدر الإشارة إليه أن عبدالرحمن كان هو الباقي الوحيد من سلالة الأمويين كما أنه مؤسس الخلافة الأموية في قرطبة، ولقد أضحت هذه الخلافة الجديدة جزءً من الإمبراطورية الإسلامية التي كانت بمعزلٍ عن الخلافة المركزية التي كانت تتخذ من بغداد مقرًّا لها، وعلى الرغم من ذلك فإنها قد نعمت بعلاقات متناغمة على الصعيدين الثقافي والتجاري مع نظيرتها الشرقية.

ولاتصافه بالعدل والكرم والأخلاق السمحة في كل معاملاته، برهّن عبدالرحمن على كونه واحدًا من أفضل الحكام الذين عرفتهم وشهدتهم أسبانيا إبان فترة الحكم الإسلامى لأسبانيا، أضِف إلى ذلك أنه كان حريصًا كل الحرص على تعيين مرؤوسين على نفس الدرجة من الأخلاق الفاضلة، ولقد ترجم عبدالرحمن الشريعة الإسلامية بهذه الطريقة التي بها يُكفل الأمن ويُتحقق الرخاء، كما شجع التجارة

وأنشأ أحواضًا لبناء السفن على امتداد الساحل الأسباني.

ومن ثَم، فإنه لم يمض وقت طويل حتى تمكنت طبقة التجار التي كانت تتمتع بالنفوذ داخل الأراضي الأسبانية من تحقيق ثراءٍ فاحشٍ عن طريق التجارة البحرية بين أسبانيا وبين كل ربع معلوم من العالم.

ولقد زين الحاكم الجديد عاصمته بالحدائق البهيجة والمباني الفخمة العظيمة. وفي قرطبة، كان هو الباعث على بناء أعظم المساجد روعة وفخامة في العالم بأسره؛ ذلك الصرح الذي لا يزال واقفًا شاهدًا على مهارة مهندسي العمارة المسلمين.

ولأنه نفسه كان مسلمًا وَرِعًا تقيا، فقد أعلى عبدالرحمن من شأن الدين وأسس المدارس كما أنه شجع صناعة الأدب، وخلال مدة حكمه الطويلة والتي امتدت لنحو اثنتين وثلاثين سنة، أرسى عبد الرحمن أُسُسًا صلبة قوية لضمان الرخاء والسعادة لأسبانيا التي كانت تحت حكم المسلمين.

3

لقد وجد العرب في سكان أسبانيا الذين بلغوا الغاية في كونهم خليطًا من أجناس متنوعة وأعراق مختلفة جسارة وإقدامًا مكَّنتهم من صناعة حضارتهم الفريدة، وتبعثر المسلمين هنا وهناك بين السكان الأصليين، وظل الأسبان لمدة تزّبو على الألف عام محاطين بالفينيقيين واليونانيين والقرطاجيين والذين برعوا جميعًا في التجارة، كما أنهم شيدوا المدن المزدهرة وحافظوا عليها، لقد غزا الرومان من قبل هؤلاء السكان ذوالأجناس المتنوعة واستقروا بينهم وعرفوهم بحضارتهم، وازدهرت أسبانيا تحت حكم الرومان لتصبح لاحقًا المساعد الرئيسي لإيطاليا حيث حفرت القنوات وشيدت الطرق وتم تحسين الموانئ وازدهرت الزراعة واصطبغت الحياة في كل حدبٍ وصوبٍ من المدينة بالطابع الروماني، وذلك في هذه الفترة التي بلغ العالم فيها أوجه من حيث الراحة والأبهة، ولقد كان القوط الغربيون أقل ولعًا بالهدم والتخريب عندما قاموا بغزو وفتح أسبانيا في القرن الخامس من هؤلاء الهَمَج الذين غزوا إيطاليا تباعًا.

ومن ثَم وجد العرب أنفسهم باسِطِي أيديهم على دولة مستقرة ومزدهرة بكل ما تحمله الكلمة من معنى فورثوا ثروات وثقافة روما القديمة، غير أنهم لحكمتهم قد أحجموا عن السلب والتدمير فقاموا ببناء حضارةٍ عادلةٍ ومتقدمة على الأسس التي خلفها الرومان.

لقد اشتهر سكان أسبانيا على مر القرون بالجسارة والنشاط والحيوية غير أن العرب قد أضافوا إلى هذا المزيج القويّ عناصر جعلتهم أكثر جسارة وإقدامًا على المغامرة، وعقب فتح أسبانيا، هاجر العرب إليها في أعدادٍ كبيرةٍ من أفريقيا وشبه الجزيرة العربية مصطحبين معهم زوجاتهم وعائلاتهم وممتلكاتهم بالإضافة إلى الكثير من وسائل الترف التي كان الشرق الإسلامي ينعم بها والتي لم تكن معروفة في أوروبا في هذه الآونة.

لقد حازّ الفاتحون العرب أفضل الممتلكات كما أنهم أمنوا سكان القرى على ممتلكاتهم البسيطة وأضحت اللغة العربية اللغة الجديدة والعالمية لأسبانيا، وفي الوقت ذاته، قام المسلمون بنقل العادات والتقاليد المتقدمة والتي كانت تنعم بها الخلافة في الشرق إلى شبه الجزيرة (شبه جزيرة أيبيريا) حتى أنه لم يمض الكثير من الوقت حتى أضحى البلد الأوروبي كله مصطبغًا بالصبغة العربية كما كان الحال في كل من شمال أفريقيا وبغداد.

واعتنق كثير من المسيحيين في هذه الأراضي التي فُتِحت على أيدي المسلمين دين

الحكام حيث أن التوحيد الذي جاء به الإسلام كان شيئًا مُرحبًا به من قبل بعض هؤلاء الذين كانوا ينتمون للطائفة الآريوسية والتي عانت تحت وطأة الاضطهاد من قبل أتباع الطائفة الأثناسيوسية الذين أقسموا على التمسك بعقيدة التثليث وعاشوا وماتوا عليها، وعلى الرغم من هذا، فإنه لم يُمنَع أحد من الإبقاء على عقيدته المسيحية إذا ما رغب في ذلك ولم تكن ممتلكاتهم وحياتهم عرضة للتهديد إذ أن حياتهم في القرون القليلة الأولى من الحكم الإسلامي كانت أفضل من ذي قبل.

وبالإضافة إلى هذا، فقد أظهر المسلمون سماحة عظيمة تجاه اليهود الذين كانوا يعيشون هناك في أعدادٍ كبيرة، والحق يُقال أن اليهود لم ينعموا بمثل هذا الأمن الذي كان مكفولاً لهم تحت راية الخلافة في قرطبة منذ سقوط القدس.

obeikan.com

obeikan.com

4

لم يكن النصر الذي حققه العرب كارثة بأي حالٍ من الأحوال في جانب أسبانيا حيث أنه حقق العدالة والإنصاف بصورة أكبرمن ذي قبل، كما أنه أتاح الفرص لعامة الناس فأضحى هولاء القرويون الذين كانوا عبيدًا للإقطاعيين من القوط الغربيين مُلاكًا لهم حرية التصرف في الأراضي وخُفضت الضرائب لهم لتصبح العُشر بدلاً من الثلث، والحق يُقال أنه تحت راية الإسلام في أسبانيا قد تم تنحية هذا الحمل الثقيل الناجم عن الإقطاع جانبًا إذ أنه كان مُمسكًا ببقية أوروبا عن الخروج من حالة الركود المُميتة التي كانت تعاني منها في العصور المظلمة، وكان لهذه التنحية أثرها الفاعل في تحقيق الازدهار الزراعي.

وكان نظام الري الذي نقله الفاتحون إلى أسبانيا والذي أثمر قبلاً في تحويل هذه الرقع الجرداء في كل من سوريا وشمال أفريقيا إلى مناطق منتجة من الأهيمة بمكان من أجل تحقيق التقدم الاقتصادي في أسبانيا، وحظت أسبانيا بوفرةٍ من جداول المياه المتدفقة من الجبال والتي مهدت الطريق إلى إقامة نظام في الري

obeikan.com

لم يلبث أن لم يكن له مثيل في العالم.

كما نقل العرب أيضًا إلى أسبانيا كل هذه التطورات في الجانب الزراعي والتي كانت قد حققت نجاحًا في كل من بلاد فارس وسوريا فتمت زراعة الأرز والسكر والقطن في الأراضي الأسبانية، وبشئٍ من الحماسة، استقبل الأسبان زراعة البرتقال الذي لم يكن معروفًا لدى البلدان التي كانت تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وقد ساعد كل من البرتقال والخوخ وغيرهما من الفاكهة الصغيرة على زيادة القيمة الغذائية في وجبات القوط الأسبان فقيرة القيمة الغذائية.

ولم تلبث صناعة النسيج والحرير والقطن والأصواف والكتان أن توفر الوظائف للآلاف من الناس، كما أنها قد ساعدت طبقة التجار في البلاد على تحقيق ثروات طائلة، وازدهرت صناعة المعادن حتى أضحت سيوفَ ودروعَ طُليطلة ذات سمعة لا تُبارى في العالم، وزُينت منازل المغاربة الفاتحين بالخزف والآنية الزجاجية والقرميد ذي الشكل الشرقي، وعليه فقد شقَّت هذه المواد طريقها تدريجيًّا إلى السوق الأوربية.

ولم تنشط التجارة بين ربوع أسبانيا فقط حيث إنها قد نشطت كذلك بينها وبين شمال أفريقيا وسوريا وبلاد فارس، ولقد وجد المغاربة الفاتحون ميزة عظيمة في كونهم جزءً من الإمبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف تتمثل في أنهم وسكان هذه المناطق النائية أصحاب دينٍ واحدٍ ولسانٍ واحد، وكان هذا الباعث هو الذي

جعل هذا المجد التجاري الذي كانت أسبانيا تتمتع به من ذي قبل يزدهر من جديد، كما أنه ساقها إلى تحقيق أمجاد جديدة.

obeikan.com

obeikan.com

5

لقد بلغ التقدم ذُراه في أسبانيا حينما كانت تحت وطأة المغاربة الفاتحين عندما وصل عبدالرحمن الثالث ومن بعده خليفته الحكم الثاني إلى سُدَّة الحكم، وتجدر الإشارة إلى أن هذين الخليفتين ذوي الموهبة قد امتدت فترة حكمهما من عام 912 م إلى عام 976 م، وتؤرخ هذه الفترة أن أسبانيا قد بلغت ذُرى الازدهار على أصعدة الرخاء والثقافة والسعادة.

وازدهرت أسبانيا على نحوٍ لم تشهد له مثيلاً من قبل حينما كان عبد الرحمن الثالث متربعًا على عرشها إذ أنه كان على درجةً عاليةً من الذكاء وسعة العقل وعزيمة لا تنثني عن تحقيق العدل فازدهرت التجارة بقوة وتكدست الثروات الطائلة في البلاد، وقام الخليفة ببناء أسطول بحريّ قويّ والذي عمل سويا مع أساطيل الدولة الإسلامية في الشرق على حماية التجارة وجعل اليد الطُّولى في البحر الأبيض المتوسط للمسلمين.

وعمل الخليفة وحاشيته على حد سواء على تشجيع العلم والفن في كل ربوع أسبانيا حينما كانت تحت راية الإسلام فكان الأثرياء يُغدقون بسخاء على الفنانين والشعراء والفلاسفة والعلماء، وأُنشِئت المكتبات العامة والأكاديميات العلمية في كل المدن الكبيرة في أسبانيا من أجل تحقيق التقدم في العلم والأدب، أما علم الطب الذي جهله الكثيرون خارج نطاق العالم الإسلامي فقد تقدم في قُرطبة إلى درجةٍ جعلت الأمراء المسيحيين يأتون إلى بلاط الخليفة طلبًا لعلاجهم من أمراضهم.

ولقد ذاع صيِّت عبد الرحمن الثالث على نطاقٍ واسعٍ لدرجة جعلت السفراء من أوروبا بل ومن القسطنطينية يأتون لزيارته قبل وفاته في عام 961 م.

وتُعد الفترة التي تربع فيها الحكم الثاني على عرش أسبانيا أكثر مجدًا وروعة من تلك التي عاشتها البلاد تحت حكم سلفه عبدالرحمن الثالث، وإنه لمن النادر أن تحظى مملكة ما بحاكمين مستنيرين على وجه التتابع والتوالي، لقد كان الحاكم الأول يكره الحرب، ولذا فإنه نجده قد وجّه كل طاقاته لتحقيق السلام والتقدم، كما أنه كان شغوفًا جدًا بصناعة الأدب مما دفعه إلى إرسال وكلاء عنه إلى كل ربوع العالم الإسلامي فيما بينها تلك البلاد في أقصى بلاد الإسلام كبُخارى من أجل الحصول على المخطوطات النادرة، وعلاوةً على ذلك، فإنه قد راسل شخصيًا هولاء المؤلفين البارزين من أجل الحصول على نسخ من أعمالهم والتي كان يدفع في مقابلها الكثير من الأموال، أما بالنسبة للكتب التي لم يتمكن من شرائها، فإنه

كان يأمر بنسخها، ومن ثم، فإن مكتبته في وقت ما قد حوت أكثر من أربعمائة ألف مخطوطة راجعها الخليفة جميعها وفهرسها بنفسه.

وقد ضم الحاكم الثاني إلى بلاطه عددًا من العلماء ومبدِعي الأدب، وأولى اهتمامًا بالغًا بالتعليم جعله يشيد سبعًا وعشرين مدرسةً جديدةً في عاصمته، كما اتسع مدى جامعة قرطبة وذاع صيتها في الآفاق.

obeikan.com

obeikan.com

6

كانت هناك عوامل مشتركة جمعت بين التعليم والفن والعلم في كل ربوع الإمبراطورية الإسلامية، وتمثلت هذه العوامل في العقيدة واللغة والعادات المشتركة التي وحَّدت كل البلاد التي كانت تحت راية الامبراطورية الإسلامية لدرجة أن العلماء المسلمين كانوا يستطيعون التنقل بحرية بين بُخارَى التي تقع في شمال الهند وبين قرطبة، ولقد كشف المدى الذى وصلت إليه الحضارة الإسلامية بالإضافة إلى التقدم والإنجازات التي حققتها البلاد الواقعة تحت راية الإسلام عن عاملٍ وتأثيرٍ ملهِم في الثقافة والفنون الإبداعية في جانب المسلمين.

فجامعة قرطبة مثلاً قد جذبت المدرسين وطلاب العلم ليس من أسبانيا وحدها فحسب بل ومن إيران وسوريا ومصر وشمال إفريقيا كذلك لدرجة أن الآلاف من طالبي العلم كان يشغلون قاعاتها عندما كان الأساتذة المهرة يقومون بإلقاء المحاضرات، ومن الجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الدارسون كانوا يحضرون بدافع الحب الخالص لتلقي العلم في حين أن معظمهم كان يتواجد بدافع التعرف على

التقدم المهني الذي وصل إليه المسلمون على الناحية البيروقراطية، ومن ثَم، فإنهم أعدوا أنفسهم لتقلد المناصب في علم الكلام والفقه والخدمة العامة.

ولقد بلغ من حب الحاكم الثاني واحترامه لمبادئ السلام أن أضحت قرطبة المركز الأكثر إشراقًا في العالم على صعيد الحياة العقلية، ليس في أسبانيا وحدها فحسب بل في العالم بأسره.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور «هنري شورتز» في كتابه «تاريخ العالم «إن كل هذا النشاط العقلي لم يكن نتاج إبداع زائف من قبل ملك مستبد»

ثم يستتبع قائلاً:

«(إن هذا النشاط العقلى هو نتاج) تلك الفترة المشرقة والمزدهرة من الرخاء المادي، والحق يُقال أن سكان أوروبا المسيحية والذين كانوا يعيشون في أزقة المدن المظلمة وأكواخ القرى البائسة في تجمعات حول قلاع النبلاء الذين لم يكونوا على قدرٍ من الثقافة والأخلاق لم يُجانبوا الصواب في اعتقادهم أنهم قد نزلوا بعبقر عندما تم نقلهم إلى ذلك العالم البهيج المشرق، ولقد دفعت هذه الروح الكريمة من التسامح وحرية العقل التي أظهرها المسلمون والتي راج عبيرها وشذاها على سهول الأندلس البهيجة مسيحيي أوروبا والذين شاهدوها عياناً على الاعتراف بأن دين المحبة الخاص بهم من الممكن أن يكتسب شيئًا ما من المصاحبة الحسنة لدين المسلمين الذين يبغضهم المسيحيون.

إنه هنا في هذه البقعة من الأرض حيث الجمال الذي يدفعنا اليوم أن ننظر إلى الماضي بأسًى وحسرة لمرور هذه الفترة السعيدة مرور الكرام، هذه الفترة التي بلغت فيها الحضارة في الأندلس غاية الحسن إذ كانت قرطبة وطليطلة حينها يحميان النار المقدسة لهذه الحضارة التي أُنشِئت على أراضي أوروبا؛ إنه السحر الذي لايزال بريقه يضوي في قاعات قصر أشبيلية وقبة قصر الحمراء.»

obeikan.com

obeikan.com

7

لقد كان من الضروري أن يحدث بعض الاستطراد عند هذا الحد حتي يُؤخذ بعين الاعتبار هذا الإبداع الذي أوجده المسلمون ذوو الثقافة العالية في صقلية مقارنة بنظيره في أسبانيا إلى جانب كونه جسرًا هامًا لنقل العلم والمعرفة الإسلامية إلى داخل أوروبا المسيحية.

لقد فُتحت صقلية على أيدي المسلمين في عام 902 م، وظلت تحت راية الإسلام حتى غزاها النورمانديون تحت قيادة الكونت روجر في حملة مطوَّلة بلغت أوْجَها في عام 1091 م، وشهدت صقلية تآلفًا يسترعي الانتباه بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية عندما استولى روجر على سُدة حكمها؛ وعلى الرغم من اعتناقه المسيحية، فإن روجر الأول قد أبدى إكبارًا بالغًا بثقافة المسلمين، إنه هنا في صقلية حيث ازدهر التراث اليوناني والروماني على نحو فريدٍ على يد النُّبغاء من العرب والنورمانديين، وكان روجر(حاكم صقلية) الأول ظهيرًا للثقافة العربية لدرجة أنه أحاط نفسه بأساتذة وأطباء وشعراء من الشرق، كما أنه قد أبقى على النظام

الإداريً الذي أرساه المسلمون قبله حتى أنه أبقى بعض الموظفين من المسلمين في مناصبهم الرفيعة، والحق يُقال أن بلاطه في مدينة بلرم قد بَدَا شرقياً أكثر منه غربياً.

ولم يختلف الحال كثيراً بالنسبة لروجر الثاني حيث أنه بدوره قد أظهر إجلالاً بالغاً في جانب الثقافة الإسلامية إلى درجة جعلته يرتدي ثياب المسلمين ويزين جدران كنيسته الصغيرة بالنقوش العربية ويعمل على اجتذاب العلماء المسلمين إلى بلاطه الملكي.

وكانت التجارة في البلاد خلال هذا القرن من الزمان ملقاةً على عاتق العرب بصورة كبيرة، كما أن الحكام الذين كانوا على قدرعظيم من التسامح والتنوير قد أيقنوا أنه من الأفضل أن يقوم العرب بزراعة الأرض حيث أنهم هم الذين نقلوا إلى صقلية أكثر الطرق تقدمًا في الري وزراعة البساتين، تمامًا كما فعلوا في أسبانيا.

أما فريدريك الثاني، حفيد روجر الثاني، فإنه قد فاق أسلافه في تتبُّع خطى ثقافة وعادات الحضارة الإسلامية التي أحاطت به من كل جانب، فاتخذ الزوجات والسراري وعاش حياة شبه شرقية، وكان يدعو إلى بلاطه العلماء والفلاسفة من الشرق الأوسط، كما أنه أبقى على العلاقات الوطيدة بين صقلية وسوريا ومصر على الصعيدين التجاري والسياسي، وعلاوة على هذا، فإن صناعات المسلمين وفنونهم قد انتقلت في عهده من صقيلية إلى إيطاليا الجنوبية والتي كانت قد دخلت آنفًا

تحت سيادة مملكة النورمانديين، وتعلم الإيطاليون صناعة الأقمشة العربية على أيدي العمال المسلمين و»تزايد الطلب على الأقمشة الشرقية بصورة عظيمة لدرجة أنه أتى وقت من الزمان لم يكن الأوربي يشعر فيه أنه حسن الهيئة ما لم يقتنِ على الأقل ثوبًا من هذه الثياب ذات الطابع الشرقي.»

ويبقى الأمر الأكثر أهمية هو تدفق ذلك التراث التعليمي والثقافي من صقلية إلى أوروبا، حيث كان للجامعة التي أنشأها المسلمون في مدينة ساليرنو أكبر الأثر في إنشاء المدارس الطبية في أوروبا، وفي الوقت الذي كانت صقلية تدين فيه بالولاء لحكم النورمانديين المتسامح فقد امتازت البلاد بكونها معقلاً لترجمة العلوم العربية واليونانية إلى اللاتينية، ومن ثم نُقلت إلى أوروبا التي كانت لاتزال تعاني من آثار تخلف القرون الوسطى.

وفي كتابه الذى يحمل عنوان «تاريخ العرب» لخص فيليب حيتى ما كان للحضارة الإسلامية من أثر على إيطاليا على النحو الآتي :

«إن الروح الحديثة في الاستقصاء والتجربة العلمية والبحث التي تميز بها عهد فريدريك هي التي تؤرخ تقريباً لبداية النهضة في إيطاليا؛ حيث أخذ كل من الشعر وصناعة الأدب والموسيقى الإيطالية في الازدهار نتيجة للتأثير البروفانسى والعربي الواقع عليها، وأما ما يتعلق بنشر الثقافة الإسلامية، فإن صقلية قد لعبت دورًا لايقل في الأهمية عن نظيره الذي قامت به أسبانيا، بل إنه أعلى درجةً من الدور الذي

قامت به سوريا خلال فترة الحملات الصليبية.»

obeikan.com

8

لم تدمْ تلك الحقبة البهيجة التي عاشتها أسبانيا تحت راية المسلمين الفاتحين كشأن جميع الفترات السعيدة في تاريخ البشر، ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو «لماذا وكيف قُوضت حضارة المسلمين الفاتحين المزدهرة والمتقدمة والمفعمة بالطاقة في أسبانيا؟» ويبدو أن النهاية قد بدأت متدرجة منذ زمنٍ بعيدٍ، قبل أن يستجمع المحاربون المسيحيون في شمال أسبانيا من القوة والحماسة ما مكَّنهم من إعادة أدراج أسبانيا صوب المسيحية، فعلى غرار بغداد، كان الانحطاط الأخلاقي والسياسي هو العامل الذي ألمَّ بأسبانيا الخراب حيث سقط الحكام في أتون المجون والجنس لدرجة أنهم أصبحوا عاجزين؛ ومن ثم، فقد سادت الفوضى مرارًا وتكرارًا.

وفي إشارة منه إلى أحد حكام هذه الفترة والذي كان يعرف بالمستكفي، نص أحد مؤرخي العرب المحدثين قائلا «أن جُل اهتمام هذا الحاكم كان منصبًا على شهوتي الفرج والبطن.» ولقد استغل الحرس الملكي الذي كان يتألف من البربر والسلافيين

obeikan.com

الضعف الذي بدا واضحًا على الحكام كي ينصبوا أنفسهم الحكام الفعليين لأسبانيا المسلمة.

لقد قضى سكان قرطبة على الخلافة الأموية في الأندلس في عام 1027 م وذلك في أعقاب تولي سلسلة من الحكام الضعاف سُدة الحكم في البلاد، وهو الأمر الذي أدى إلى قيام عشرات الطوائف الصغيرة والتي تربع على عروشها هؤلاء الذين نصبوا أنفسهم ملوكًا عليها، وكانت أشبيلية هي الأكثر أهمية بين هذه الطوائف؛ بيْد أن الحضارة الإسلامية قد أخذت في الازدهار مرةً أخرى في قرطبة، وذلك عندما تولى الخليفة المعتضد الحكم في البلاد، ولكن الضغوط التي مارسها ألفونسو الثاني، ملك ليون وقشتالة (والتي أضيفت إليها مملكة نافار فى ذلك الوقت) على المعتضد قد اضطرته إلى ارتكاب خطأ فادح بطلبه يد العون والمساعدة في حربه ضد المسيحيين من زعيم البربر يوسف بن تاشفين، قائد دولة المرابطين الإسلامية الفتيّة في بلاد المغرب.

واستجاب يوسف على وجه السرعة لنداء المعتضد حيث توجه تلقاء قرطبة على رأس جيش يبلغ قوامه عشرون ألف جندي؛ وفي قرطبة، أنزل يوسف بالمسيحيين هزيمة ساحقة حيث أبيد جيش ألفونسو الذي ما فتئ أن فر بجلده.

والحق يُقال أن هذا النصر الذي حققه المسلمون على المسيحيين قد أجل اندثار الخلافة الإسلامية في الأندلس لمدة تربو على القرنين من الزمان، بيْد أن هذا

النصر كان باهظ الثمن بالنسبة للمعتضد إذ أن يوسف، مدفوعًا بإعجابه بحياة الترف في أسبانيا، قد عاد في العام التالي إلى شبه الجزيرة حيث غزا أشبيلية وغرناطة وضم إليهما بقية أسبانيا تباعًا.

obeikan.com

obeikan.com

9

لم يكد هؤلاء البربر الذين انحدروا من جنسٍ شبه همجي يصلون إلى سُدة الحكم في أسبانيا حتى كان الهلاك المبين لحضارة المغاربة الفاتحين في هذه البلاد، حيث أن حمية هؤلاء البربر للإسلام والناجمة عن طبيعة متعصبة قد محقت تقدم العلوم والفكر الفلسفي لهذه الحضارة، وعلى غرار ما حدث في بغداد والتي اندثر تقدمها العلمي وحضارتها العالية الرفيعة عندما تربَّع الأتراك على عرشها وذلك قبل أن تسقط فريسة لغزو المغول بزمن طويل، فإن نجم حضارة المغاربة الفاتحين في أسبانيا قد أخذ في الأفول عندما وصل البربر إلى سدة حكمها.

وعلاوة على ذلك، فقد قيّد البربر المتعصبون حرية هذا الجزء من السكان الأصليين لقرطبة والذين ظلوا على مسيحيتهم وازدهرت حياتهم تحت حكم الخلفاء المستنيرين للبلاد، واستخدم البربر وسائل تنم عن ضيق في الأفق في اضهادهم للمسيحيين لدرجة أثارت سخطهم ونقمتهم على الإسلام، ومن ثم، فقد ظهر في كل أرجاء أسبانيا الجنوبية طابور خامس كان ذا أهمية بالغة في الهجمات التي شنها

obeikan.com

المسيحيون تباعًا على المدن التي كانت تحت راية المغاربة الفاتحين.

وفي عام 1212م، انطلقت قوة عسكرية جبارة مشتركة من جانب المسيحيين تدفعها حماسة ناجمة عن الحملات الصليبية لملاقاة قوات المغاربة الفاتحين بالقرب من قرطبة، والتقى الطرفان في معركة حاسمة حيث حقق الجيش المسيحي بقيادة ألفونسو الثامن نصرًا مؤزرًا على جيش المغاربة الفاتحين الذي بلغ تعداد قواته ستمائة ألف جندي حاربوا بضراوة حتى أنه لم يفر منهم إلا عدد قليل، ويؤرخ هذا الحدث والذي كان صداه أكثر وقعًا من سقوط غرناطة في عام 1492م على بداية النهاية لبقاء أسبانيا تحت راية الإسلام.

وخلال محاولاتهم استعادة أسبانيا من أيدي المسلمين، فإن مسيحيّي أسبانيا كانوا على قدر من الوحشية اكتسبوه في منفاهم الجبري في جبال أستورياس، وما تجب الإشارة إليه هو أنه قبل أن يغزو المغاربة أسبانيا، فإن مسيحيّي المنفى هؤلاء قد عاشوا لمدة أربعة قرون في أسبانيا غير أنهم عادوا إليها في ثياب القوط الغربيين غير المتحضرين حيث أن الفترة التي كابدها هؤلاء المسيحيون من حياة بدائية في الجبال قد تسببت في ذهاب هذا القدر الضئيل من الحضارة والذي اكتسبوه في هذه الفترة القصيرة أدراج الرياح، وسرعان ما سقط هؤلاء المسيحيون في شباك التفسخ والانحطاط غير مبالين بهذا القدر الضئيل من الحضارة والذي اكتسبوه عندما كان الطابع الروماني هو السائد في أسبانيا وذلك نتيجة لحرمانهم من منابع

الثقافة والاقتصاد التي خبروها من قبل، وفي ظلال هذه الظروف اليائسة، فإنهم قد تخلوا عن دأبهم في غسل ملابسهم وأجسادهم.

لقد كانت هذه الجماعة التي لم تنل قسطها من التعليم هي التي عادت إلى أسبانيا في عام 1212 م لتجد نفسها مرة ثانية صاحبة اليد الطولى على هذه السهول الخصبة البهيجة، أما بالنسبة للكيفية التي استوعبت بها هذه الجماعة هذه الحضارة التي أسسها المغاربة الفاتحون على التكنولوجيا وحب الجمال في القرون المتتابعة، فإن هذا ما سنتعرف عليه في الفصل التالي.

obeikan.com

obeikan.com